المدارس الوقفية وآثارها العلمية والفكرية في وادي سوف

أ. محمد المختار شبرو
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية– جامعة الوادي
mokhtar3925@gmail.com

ملخص البحث

تناقش هذه المداخلة مفهوم الوقف بجانبيه الفقهي التشريعي، والعملي التطبيقي، باعتبار أنّ أغلب الدراسات الوقفية تركز بدرجة كبيرة على الجانب الأول، وما يتيحه الجانب الثاني من فرصة للاطلاع على الإنجازات الحضارية العظيمة لأمتنا الإسلامية، لذلك جاءت هذه المداخلة لتسلط الضوء على الجانب العملي التطبيقي والمتمثل هنا في الكلام عن المدارس الوقفية، وعليه نطرح الإشكالية التالية: ما الدور الذي تلعبه المدارس الوقفية في سبيل النهضة العلمية والفكرية في الجزائر عامة وفي ولاية وادي سوف خاصة وإبراز دور الزوايا كمدرسة وقفية وما آثارها العلمي والفكري (زاوية سيدي سالم أنموذجا)؟

فتحدثت عن نشأة المدارس الوقفية عامة، ثمّ تكلمت عن هته المدارس الوقفية من حيث التصميم ودراسة نموذج المدرسة الوقفية مدرسة زاوية سيدي سالم بسوق الوادي والنظام الداخلي فيها، كما تناولت مؤسسة المكتبات الوقفية سيدي سالم وسيدي مصباح رحمهما الله، وختمت بالكلام عن أهم الآثار العلمية والفكرية للمدارس الوقفية في وادي سوف خاصة.

المقدمة

عرف نظام الوقف عند كثير من الأمم قبل الإسلام، وازدادت أهميته بمجيء الإسلام، وأصبح هذا النظام من النظم المهمة في المجتمع الإسلامي، وهذا ما جعله يمر بمراحل تطور متتابعة عبر العصور الإسلامية، مما أدى إلى انتشاره على مستوى كبير لم يتهيأ لأي نظام آخر، حتى كان له أثره الواضح في بناء كثير من الجوانب الحضارية وازدهارها.

ومما لاشك فيه أن نظام الوقف الإسلامي من أرقى الأنظمة الاقتصادية التي أنتجها الفكر الإسلامي والتي ساهمت في تشييد بنية الحضارة الإسلامية، فقد أسهم الوقف في بناء صروح العلم ونشرها عن طريق المساجد والكتاتيب والمدارس والمكتبات، وتخرّج من هذه المؤسسة الكثير من العلماء والباحثين في شتى المجالات والميادين.

وإذا كان الوقف العام قد بدأ ببناء المساجد، فإنه اتسع فيما بعد ليمول النشاط العلمي والدراسي سواء في المساجد أو في المدارس التي أنشأت حولها لاستقبال العلماء والطلبة، وحبس المحسنون عقاراتهم على الخدمات العلمية مثل نسخ الكتب وإنشاء المكتبات العامة، وعلى الخدمات الغذائية والصحية للطلبة وللفقراء والمساكين وأبناء السبيل، ثم توسع الوقف ليشمل المستشفيات ومراكز البحث العلمي بمختلف أنواعه.

والجزائر بشكل عام ووادي سوف بشكل خاص حاله حال بقية البلاد الإسلامية ضم عبر تاريخه العديد من الأوقاف الإسلامية التي كان لها الأثر البالغ في تطوره العلمي والفكري، وكان للمدارس الوقفية الحظ الأوفر في هذا المجال، فهي باختلاف مراحلها التعليمية كانت متعددة الغايات فمنها مدارس لتعليم الدين ومنها مدارس لتدريس علوم الآداب والصيدلة والطب وغيرها من العلوم المعرفية، وكانت تضم أماكن لنوم الطلبة الغرباء وقاعات للمطالعة والبحث العلمي والكتابة والمرافق الصحية، ومن اجل الارتقاء بمستوى الطلبة من جهة، ورفع المستوى العلمي والفكري من جهة أخرى عمد الكثير من الخيرين إلى وقف المكتبات من خلال تخصيص بنايات لهذا الغرض أو عن طريق تزويد المكتبات بالكتب التي يحتاج إليها الباحثين في شتى المجالات.

ومن المعروف أن مفهوم الوقف يشمل جانبين جانب فقهي تشريعي، وجانب عملي تطبيقي، ولما كانت اغلب الدراسات الوقفية تركز بدرجة كبيرة على الجانب الأول، وما يتيحه الجانب الثاني من فرصة للاطلاع على الإنجازات الحضارية العظيمة لأمتنا الإسلامية، لذلك نسلط الضوء على الجانب العملي التطبيقي والمتمثل في دراستنا هنا على المدارس الوقفية، وعليه نطرح الإشكالية التالية: ما الدور الذي تلعبه المدارس الوقفية في سبيل النهضة العلمية والفكرية في الجزائر عامة وفي ولاية وادي سوف خاصة وإبراز دور الزواية كمدرسة وقفية وما آثارها العلمي والفكري (زاوية سيدي سالم أنموذجا)؟.

واقتضت مداخلتي هته الاعتماد على المنهج الوصفي المناسب لهته المداخلة، على أن يقسم مداخلتي إلى أربعة مطالب:

أتحدث في المطلب الأول على نشأة المدارس الوقفية عامة، وفي المطلب الثاني نتكلم فيه عن هته المدارس الوقفية من حيث التصميم ودراسة نموذج المدرسة الوقفية مدرسة زاوية سيدي سالم بسوق الوادي والنظام الداخلي فيها، والمطلب الثالث أتناول فيها مؤسسة وقفية كان لها الدور المكمل للمدارس الوقفية ألا وهي المكتبات الوقفية وأتناول فيها للمكتبة سيدي سالم وسيدي مصباح رحمهما الله، وفي المطلب الرابع والأخير أتناول فيها أهم الآثار العلمية والفكرية للمدارس الوقفية في وادي سوف خاصة.

المطلب الأول: نشأة المدارس الوقفية عامة

لإحياء دور الأوقاف المهم لتمويل مشروعات بناء الحضارة الإسلامية من جديد، وفي مقدمتها قضايا البحث العلمي والتطوير التقني، وذلك كي نستطيع أن نبحث الخطى لسد الفجوة بين بلادنا النامية والدول المتقدمة، ومع التطورات الملحوظة هنا وهناك في الدول المتقدمة عامة وما ينتشر في الدول النامية خاصة الدول الإسلامية منها نمط الوقف على المدارس ودور التعليم فيها انتشارا واسعا في الدول الإسلامية، مما كان له الدور والأثر الكبير والواضح في نشاط حركة التعليم عند المسلمين، فبنيت المدارس أصلا عن طريق الوقف، ووفرت حاجيات التعليم بأبعادها المختلفة من مدرسين ومساكن وأدوات وتجهيزات مدرسية[1].

ويشار هنا إلى أنه بظهور المدارس النظامية، وبروز فريق من المعلمين المتفرغين لمزاولة مهنة التدريس، إضافة إلى تزايد أعباء الحياة هذا الأمر دعا إلى ظهور الحاجة إلى مورد ثابت ينفق منه عليهم، فكان أن وقّفت بعض الممتلكات الخاصة على المدارس للصرف عليها وعلى المشتغلين بها، وأنفقت في ذلك أموال طائلة مما ضمن بقاء هذه المؤسسات واستمرارها في أداء الوظيفة التي أنشأت من أجلها، لأن الوقف جعل هذه المعاهد تكتسب صفة الدوام والاستمرار، وبدون الأوقاف لا يمكن أن تقوم قائمة لأي مدرسة أو منشئة تعليمية في كثير من العصور الإسلامية[2].

وقد تفاوتت أوقاف المدارس بعضها عن بعض، فمنها ما تحظى بنصيب وافر نتيجة غنى وثراء من وقّف عليها، أو تكاثر أوقافها ونمائها، فيحظى منسوبيها بالتالي بنصيب وافر من المال والمأكولات والملابس، ومنها ما يكون نصيب منسوبيها أقل من ذلك، وغالبا ما تشتهر المدرسة ويعلو صيتها بكثرة أوقافها، ويحصل عكس ذلك أيضا، إذ إنه كان زراعيا بأحوال الموسم[3].

ولم يقتصر الوقف في عملية التعليم على كونه موردا ماليا له، بل تعدى ذلك إلى طرقه جوانب العملية التعليمية كافة، حتى أنه يمكن القول: إن وثيقة الوقف كانت بمثابة اللائحة الأساسية للمؤسسة التعليمية، حيث تضم الأسس التربوية للتعليم والشروط التي يجب أن تتوافر في القائمين بالتدريس ومواعيد الدراسة، والحقوق والواجبات، وما إلى ذلك من تنظيمات الإدارية والمالية، ولما كانت الموارد المالية للمدرسة محددة بريع الوقف، فقد حدد الواقفون أعداد الطلبة الذين يتلقون العلم في المدرسة، وليس ذلك فحسب، بل إنهم حددوا طلبة كل مذهب من المذاهب الأربعة وطلبة

---

[1] بشر، الصادق أبكر آدم، الوقف العلمي وأثره على التعليم، جامعة الإمام المهدي، السودان، ص:09.

[2] بشر، الصادق أبكر آدم، الوقف العلمي المرجع وأثره على التعليم، نفسه، ص:09.

[3] النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسيني،مطبعة الترقي، ط:1367هـ/1948م، دمشق، سوريا،ج:1، ص:290.

التفسير، وطلبة الحديث، وما إلى ذلك من التخصصات التي تدرس في المدرسة[1].

وقد حرص واقفوا المدارس الوقفية ودور التعليم المختلفة في كثير من العواصم الإسلامية على توفير كافة احتياجات الطلبة الدارسين فيها، ومدرسيهم وبالأخص المسكن الملائم لهم، كي يجد الطلبة والأساتذة الغرباء، والطلبة الفقراء من اهل البلد المناخ المناسب لتلقي العلم، فكان من المكملات كثير من المدارس إنشاء مرافق ملحقة بها تخصص لسكنى الطلبة والمدرسين، كما وجد أيضا مثل هذه المساكن يسكنها المدرسون والعلماء المرتحلون لتقي العلم وتعليمه في المدن الإسلامية، وهذا ما عرف في الحضارة الإسلامية بالنظام الداخلي في المدارس، أو السكن الداخلي، ويعد هذا الأمر بحق أحد مفاخر الحضارة الإسلامية ومنجزاتها[2].

ولقد انتشرت هته المدارس بصفة عامة في الجزائر كما هو الأمر في بلاد زواوة حاضرة بجاية ومازونة وما جاورها وإقليم الزاب وحاضرة توات وما أدراك ما حاضرة توات خير مثال على المدارس الوقفية المنتجة بحق للعلم والعلماء وإقليم سوف بالذات حذا حذو هته الحواضر وأنشأ المدارس الوقفية لا تقل أهمية عن التي بحاضرة توات وهي نتاج للحركة التوعوية الناضجة في إقليم سوف والحركة العلمية المتواجدة بها وخير مثال لها تلك الزوايا الصوفية والمدارس التابعة لها وكذا المدارس الخاصة المتواجد في وادي سوف لتعليم القرآن والعلوم الشرعية وكذلك العلوم الكونية.

وفي المطلب التالي أتكلم فيها على نموذج من النماذج المدارس الوقفية التي أصبح لها صيت وطني المدرسة القرآنية لزاوية سيدي سالم الإدريسي الحسني بسوق الوادي حي الأعشاش.

المطلب الثاني: المدارس الوقفية من حيث التصميم والنظام الداخلي فيها

الفرع الأول: التصميم:

تميزت المدارس الوقفية بشكل عام بتصميم المعماري الخاص الذي يقوم على وجود إيوان أو أكثر لنوم الطلبة والأساتذة المدرّسين، وأحيانا يكون شكل البناء عبارة على غرف تعلوها قباب عالية عادة قديما وحديثا، وتحتوي على مصلى بمحراب للصلاة، وتحيط بالبناء أروقة (براطيل) تقي من حر وقر، هذا في غالب الزوايا المتواجدة في إقليم سوق ولله در القائل الزاوية هي مؤسسة شاملة، فهي مسجد للعبادة ومدرسة للتعليم، وملجأ للهاربين، ومأوى للغرباء، ومركز للفقراء[3].

ومن أجل توضيح هذا الأمر أكثر سنسلط الضوء على مدرسة زاوية سيدي سالم بوادي سوف

[1] الأمين ، محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر 648-923هـ/1250-1517م، دراسة تاريخية وثائقية، دار النهضة العربية، ط: 1980م، القاهرة، مصر،ص:240.

[2] بشر، الصادق أبكر آدم، الوقف العلمي المرجع وأثره على التعليم، المرجع السابق، ص:10.

[3] سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ط:1998،ج:3(1830-1954م)ص:171.

باعتبارها نموذجا فريدا في وقتها للمدارس الوقفية في وادي سوف، وهذا يقتضي منا تعريف بالزاوية وبمؤسسها مولانا الشيخ العارف بالله سيدي سالم بن محمد الأعرج السوفي(1186-1277هـ=1861م)[1].

- زاوية سيدي سالم بسوف: وبها أقدم صومعة بسوف وقد شيدت عام 1896م، وتسمى هذه الزاوية بزاوية سيدي سالم، نسبة إلى مؤسسها الولي الصالح سيدي سالم بن محمد الأعرج السوفي.

- والشيخ بن محمد السوفي، نسبة إلى مدينة (وادي سوف[2]) بالجنوب الجزائري، ناشر الطريقة الرحمانية بوادي سوف، وينتهي نسبه إلى الشيخ المحجوب دفين القيروان، والذي يرتفع نسبه إلى مولانا الشريف سيدي عبد السلام بن مشيش[3]، ومما جاء في وصفه:"الولي الكامل المرحوم العامل، السائر في أوضح طرق القوم، ذي المناقب الحميدة والأفعال الجميلة السديدة"[4].

ولد عام 1186هـ بوادي سوف وتربى يتيما في حجر والدته، رحل في طلب العلم إلى تونس، وكان منذ صباه مستغرقا في ذكر الله واجتهد في طلب شيخ مرب، إلى أن عثر عليه في شخص الشيخ علي بن عمر الطولقي، الذي تولى تربيته وأدخله الخلوة وسلك على يديه، أوصاه شيخه علي بن عمر بفتح زاوية بوادي سوف وكان ذلك عام 1226هـ، تصدر للتدريس ومنح الأوراد وإقامة حلقات الذكر والدعوة إلى الله ، وأقام علاقات حميدة مع شيوخ الرحمانية الآخرين: مثل: مولانا عبد الحفيظ الخنقي، ومصطفى بن عزوز البرجي رضي الله عنهما، الذي كان دائم الزيارة لهما[5].

- بعد تجديد الزاوية حيث دشنها رئيس رابطة زوايا الطريقة الرحمانية الشيخ العلامة مأمون القاسمي شيخ زاوية الهامل ببوسعادة ولاية المسيلة وقد تميز بناءها التجديد عن البناء القديم البسيط جدا بالرسوم الزخرفية البسيطة على الجدران والأروقة بدون كثرة فيها خاصة في المسجد الزاوية تعلوها قبة مزخرفة، تألفت المدرسة من طابق أرضي يضم المسجد الزاوية ولواحقها من المائضة والحمامات وضريح المؤسس، وطابقين ألأول تضم مراقد كبيرة مع ملحق المكتبة الكبيرة الشهيرة بالأوساط الجامعيين والطلبة والعلماء شمالا وجنوبا وغرفة إدارة المكتبة وغرفة كبيرة

[1] عبد المنعم، قاسمي الحسني، الطريقة الخلوتية الرحمانية: الأصول والآثار منذ ظهورها إلى غاية الحرب العالمية الأولى، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في العلوم الإسلامية: تخصص عقيدة، إشراف: الدكتور عمار جيدل، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية، السنة الجامعية:2008-2009م، ص:311.

[2] انظر: العوامر، إبراهيم محمد الساسي، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، الدار التونسية للنشر، تونس ط:1977،1.

[3] سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج:4، ص153.

[4] العوامر، إبراهيم محمد الساسي، البحر الطافح في بعض فضائل شيخ الطريق سيدي محمد الصالح، مطبعة بيكار، تونس، 1323هـ=1905م.

[5] سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج:4، ص153.

لمقتنيات المخطوطات النادرة لعلماء الزاوية، والطابق الثاني يضم المدرسة القرآنية لتدريس القرآن وعلومه والعلوم الشرعية تتكون من غرفتين كبيرتين لتحفيظ القرآن وثلاث غرف واحدة للإدارة المدرسة وأخرى لشؤون الطلبة وثالثتها للمدرسين بالزاوية مع دوارات للمياه ومطبخ نصف داخلي ورواقين كبيرين، ويوجد ملحق بالمراقد ذو طابق واحد الأرضي منها مكان لاستقبال أهل العلم والعلماء وطلبة العلم ومكان للفتوى وحلقات الذكر.

توفي سيدي سالم عام 1227هـ، بعد أن تجاوز التسعين عام ، وخلفه على رأس الزاوية إبنه الشيخ سيدي مصباح[1].

الفرع الثاني: النظام الداخلي للمدارس الوقفية:

كان للمدارس الوقفية نظامها الداخلي الخاص ، سواء ما يتعلق منها بالمناهج التعليمية، أو بنوعية العلوم المدرسية، أو المدرسين وملاك الإدارة وخدماتي المدرسة، والمتعلقة بضوابط العمل والمتمثلة بأوقات الدروس وأوقات انتهاء العمل والأمور الخدمية الأخرى المتعلقة بالمدرسة.

وفيما يخص ويتعلق بالمناهج التعليمية، في كل المدارس الوقفية الرعية المتواجدة في ربوع سوف كلا تعتمد في الفقه على المختصرات الفقهية لسهولة حفظها مع القرآن الكريم باللوح تعليم تقليدي بحت إلى الآن مع تطور قليل فقط، ومن المختصرات التي تدرس منها مختصر الأخضري في الفقه ومختصر بن عاشر الصنهاجي ومختصر أسهل المسالك لبشار المالكي ومتن الرسالة لبن زيد القيرواني وختاما بمختصر سيدي خليل ومن علوم الآلة متني الآجرومية وبن مالك ومتن ملحة الإعراب، وفي التصوف إحياء علوم الدين للغزالي، مع حلقات للرواية والدراية في صحيح البخاري ومسلم وموطأ الإمام مالك ، وحلقات الشفاء في أيام المولد النبوي الشريف.

أما ما يتعلق بملاك المدارس الوقفية فقد كانت تضم المدرسين والمعيدين والطلاب، وقارئ التفسير والمنشدين والمداحين، وكاتب الغيبة، وخازن الكتب أو القائم على المكتبة المدرسة وشيخ الرواية وكاتب غيبة السامعين، فضلا عن أصحاب الإدارة والخدمات: من الناظر والمشرف على الناظر والكاتب والخازن.

المطلب الثالث: وقف المكتبات التابعة للمدارس الوقفية

لم يكن بإمكان المدارس الوقفية أن تكمل رسالتها من دون الاعتماد على المكتبات الوقفية فهي من الأركان الأساسية في نشر العلم والثقافة، وقد قام محبو العلم والمحسنين والمقتدرين بإنشاء المكتبات الوقفية وإلحاقها بالمساجد وبالمدارس الوقفية، أو وضعها بشكل مستقل إدراكا منهم لأهمية الكتاب بالنسبة للطالب ومحبي التعلم من جهة، وعدم تمكن الكثيرين من شراء الكتب

[1] عبد المنعم، قاسمي الحسني، الطريقة الخلوتية الرحمانية، المرجع السابق، ص311.

بسبب ارتفاع أثمانها من جهة أخرى، وقد عرفت هذه المكتبات بأسماء عديدة مثل خزانة الكتب، وبيت الحكمة، ودار العلم ودار الكتب، وكلها تماثل اليوم المكتبات العامة والمكتبات المركزية.

انتشرت خزائن الكتب الوقفية في ربوع سوف حيث لا تجد مسجدا أو زاوية أو رباطا خاصة أو عامة إلا وبه مكتبة ملحقة به، وقد كانت تخصص لها المال الكثير لتسيير أعمالها والمتمثلة بصيانتها وأعمال الترميم ورواتب العمال، أما أبنيتها فكانت تشمل على حجرات متعددة تربط بينها أروقة فسيحة، وفيها أروقة خاصة للمطالعة وغرف للنساخ الذين ينسخون الكتب، وغرف لمبيت الغرباء منهم، ونتيجة لكثرة هذه المكتبات والخزانات سنسلط على أنموذجا واحدا ألا وهي مكتبة سيدي سالم المشهورة في ربوع وادي سوف بسوق الوادي الأعشاش.

مكتبة سيدي سالم: أنشأها الشيخ السابق للزاوية وهو سيدي الحسين بن سيدي الطاهر بن سيدي محمد الصالح بن سيدي سالم مؤسس الزاوية، مكتبة ضخمة واسعة جامعة لمختلف العلوم، يستفيد منها الطلبة والباحثون، ويقوم على شون هته المكتبة الآن ابنه "سيدي محمد بن سيدي الحسن السالمي"، وذلك بالسعي على تزويدها بالمراجع الجديدة، والكتب النفيسة وإدخال المعلوماتية المعاصرة لتعميم الاستفادة، فجزاهم الله عنا خير الجزاء، كما تزخر الخزانة السالمية بعدد هام من الكتب المخطوطة في شتى صنوف العلوم ويرجع بعضها إلى عهود قديمة، سعى القائمون على الزاوية لجلبها والاستفادة من علمها، ومن خلال تصفح تلك المخطوطات، وجدنا بعضها مثبت على أغلفتها من الداخل أسعار المخطوط، ويظهر أن أهل الزاوية ومحبيها، كانوا يخصصون مبالغا لشراء أنفس الكتب وهذا ليس غريبا عن من نذروا أنفسهم لخدمة القرآن والعلم[1].

مكتبة سيدي مصباح بن سيدي محمد الصالح بن سيدي سالم: هي إحدى لواحق وأوقاف العلمية للزاوية ساقتني الأقدار إلى زيارتها واكتشاف الكنوز الموجودة بها من أندر المخطوطات تقريبا التي رأيتها صاحبها هو سيدي الشيخ مصباح بن سيدي محمد الصالح بن سيدي سالم المولود خلال 1912بالوادي حفظ القرآن الكريم في زاوية جده سيدي سالم صغيرا وتتلمذ على يد مشايخها، عاش يتيما توفي والده سيدي محمد الصالح خليفة أبيه بالطريقة والزاوية وهو ابن 4 سنوات، أي 1916م (1916م–2016م الذكرى المائة لوفاة الشيخ)، أتم دراسته في الزاوية ثم اتجه إلى المغرب فدرس بجامع القرويين، وعند عودته درس بزاوية سيدي سالم مرة أخرى رفقت أخوته سيدي العزوزي وسيدي الطاهر، عرف انتماءه للحركة الوطنية فقد كانت تعقد اجتماعات

[1] عثماني، الجباري، التراث المخطوط بخزانة زاوية سيدي سالم العزوزية في وادي سوف–جرد وإحصاء–، مداخلة ضمن الملتقى الوطني السادس حول: التراث الثقافي، خزانة المخطوطات في الجزائر بين نوازع الانكفاء وآليات الصمود والارتقاء، ماي 2013، ص160.

حركة انتصار الحريات في بيته، وأثناء الثورة كان مناضلا في جبهة التحرير الوطني يجمع التبرعات للثوار، كما سجن مرتين أثناء الثورة.

عرف بحبه للعلم والعلماء، اهتم بجمع الكتب حيث أوقفا مكتبته العامرة بالكنوز والأسرار وقد أمضى وقتا طويلا في جمعها وهي تضم شتى العلوم والفنون قدرت العناوين أكثر من 3 آلاف عنوان، وإضافة إلى ذلك تحتوي على خزانة مخطوطات نادرة جدا تحتاج من الباحثين الاعتناء بها، وكذا بعض الكتب ذات الطبعات الحجرية، وصحف قديمة، يقوم على العناية بهته المكتبة النادرة أحد أبناء سيدي مصباح سيدي محمد بن سيدي مصباح بن سيدي محمد الصالح، جزاه الله خيرا وأدم النفع به وبعلوم أبيه وجده في الدارين آمين[1].

المطلب الرابع: الآثار العلمية والفكرية للمدارس الوقفية في وادي سوف

مما لا شك فيه أن الحضارات لا يمكن أن تستقيم وتتطور من دون الاهتمام بالتعليم، وبما أن الإسلام وقف من العلم موقفا مشرفا إذ لم يسبقه دين من الأديان أن وقف كموقفه الأمر الذي جعله الدين الوحيد الذي يقترن اسمه باسم الحضارة الإسلامية، فقد سعى الجزائريون وخاصة في ربوع وادي سوف نحو الاهتمام بوقف المدارس على اختلاف مراحلها التعليمية باعتبارها مصدر إشعاع لرقي الفكر والنهوض بالمعرفة الإنسانية، ولم يبخلوا وفي أحلك الظروف على تعليم أبنائهم ولا سيما أبناء المدن سواء من خلال الكتاتيب أو المدارس.

وتؤكد شواهد التاريخ وكما مر بنا سابقا أن للزاوية العزوزية دور هام في تعليم القرآن الكريم، والتي كانت مقصدا للطلبة من كامل وادي سوف، وتعدى ذلك إلى بلاد النمامشة ووادي ريغ وطلبة الزاب الشرقي(أولاد عمر) وتماسين[2]، وقد كان لهم نظام داخلي، يضمن لهم من خلاله السكن والإطعام، وقد كان هؤلاء الطلبة يحفظون القرآن الكريم على أساس الطبقات الأربع منها: الطبقة الأولى والثانية والثالثة والرابعة، وكل طبقة تضم عددا من الطلبة الذين وصل بهم المطاف إلى حفظ القرآن الكريم كاملا، وعلى هذا الأساس استطاعت الزاوية تأسيس تعليم يعتمد على النظام الداخلي، وقد توافد على الزاوية للزيارة من خارج المنطقة من أقطار المغرب العربي ومصر من أهل العلم والصلاح نجد: الشيخ إبراهيم البختري التونسي، والشيخ محمد بن حمد النفطي من علماء الجريد، والشيخ العروسي بن عزوز، والشيخ المكي بن عزوز، والشيخ الخضر بن الحسين وغيرهم كثير[3].

---

[1] لقاء خاص مع القائم على المكتبة الوقفية سيدي محمد بن سيدي مصباح السالمي يوم: 2016/09/02م مساء.

[2] مياسي، إبراهيم، الدور التعليمي لزاوية سيدي سالم الرحمانية بوادي سوف، حولية المؤرخ، ع:1، تصدر عن اتحاد المؤرخين الجزائريين، الجزائر 2002، ص312-313.

[3] بن موسى، موسى، الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها 1900-1939م، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006، ص89.

وقد كان للأولاد بكار دور في التعليم بالزاوية، وهما أحمد بكار وابنه محمد العيد الذي مكث في تعليم القرآن بالزاوية أزيد من ستين سنة، وخلفه في ذلك إثر وفاته ابنه محمد بكار[1]، وقد تخرج على يديهم الكثير من القراء خاصة من وادي سوف، وكما كانت هذه الزاوية أيضا ملاذا لكثير من علماء المنطقة معلمين ومدرسين مثل: شيخ البركة وشيخ شيوخ سوف الشيخ عبد الرحمن العمودي (جدنا)، والشيخ العربي بن موسى، والشيخ إبراهيم بن عامر صاحب كتاب الصروف المعروف في ربوع سوف، والشيخ الطاهر العبيدي وشقيقه الشيخ أحمد العبيدي، والشيخ محمد جديدي، وغيرهم[2].

ومن الطلبة الذين تخرجوا من الزاوية: "الشيخ مصطفى سالمي بن الصادق بن محمد الصالح بن سيدي سالم العايب"، ولد خلال سنة 1914م بالزاوية السالمية بحي الأعشاش بوسط مدينة الوادي، مات أبويه في صغره فكفله يومئذ عميه الشيخ الطاهر والشيخ محمد العزوزي، بدأت رحلته في طلب العلم من الزاوية إذ حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة على يد أعمامه سيدي الطاهر وسيدي العزوزي، وقد شق (تكرار الحفظ) سبع مرات، وكان يختمه قراءة وتلاوة فيكل أسبوع، وكان يسرد(يكرر) القرآن على الحافظ "السيد عبد الله بالهانية"، ويعطيه في آخر الشهر مبلغا قدره (دورو) أي ما يعادل(5 فرنكات)[3].

كما تلقى مبادئ العلوم الشرعية واللغوية على أشهر شيوخ ذلك العهد الذين كانوا يترددون على الزاوية باستمرار، ومنهم الشيخ الطاهر العبيدي، وسيدي أحمد العبيدي وغيرهما، ثم اشتغل الشيخ بعد ذلك معلما للقرآن، وتخرج على يده ثلة من أهل المنطقة، ومنهم زوجته مياسة بنت عمه محمد العزوزي، واعتنى الشيخ بالتدوين ونسخ مؤلفات العلماء، وكان يسجل كل ما يسمعه، ويقيد كل الحوادث والخبار من ولادات ووفيات وحكم وأمثال، وأحداث ثقافية وسياسية واجتماعية، ويعتبر كتابه "الدر المصفى" ثمرة لجهوده العلمية، كما كتب بإشارة من عمه بن عزوز رسالة عن جده "سيدي محمد الصالح" وهي بعنوان: المنهج الواضح في أحوال الشيخ سيدي محمد الصالح، وهي في ورقات مختصرة[4].

ومنه فلم يقتصر دور الوقف في عملية التعليم على كونه موردا ماليا يرفد المدارس بما تحتاجه من مستلزمات، بل تعدى ذلك وامتد إلى التوجيه التربوية والإرشاد الديني، إذ كان يتدخل في توجيهات العلمية والتربوية، وفي تعيين العلوم والفنون التي يجب أن تدرس في المدارس وفي

[1] مفتاح، عبد الباقي، أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، دار الوليد، الوادي، 2005م، ص183.

[2] غنابزية، علي، مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 19م، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2001/2000م، ص183.

[3] سالمي، مصطفى، الدر المصفى من تقاليد الشيخ سالمي مصطفى، تص، تع، علي غنابزية، مخطوط بخزانة زاوية سيدي سالم، ص3.

[4] سالمي، مصطفى، الدر المصفى من تقاليد الشيخ سالمي مصطفى، المرجع السابق، ص3-4.

المقاييس والمؤهلات العلمية التي يجب أن تتوفر في المدرس الذي يعمل في المدارس الوقفية، ويمكن أن نحدد أهم الآثار العلمية والفكرية للمدارس الوقفية بما يلي:

– إن طبيعة الخدمات المتكاملة التي قدمتها المدارس الوقفية لمنتسبيها كالغذاء، والكساء، والمواد الكتابية وغيرها، ساهمت في تأمين الظروف المناسبة للفقهاء والعلماء والدباء في محراب التعليم، والتأليف، والنشر، والتحقيق العلمي والفقهي.

– ساهمت المدارس الوقفية في الحفاظ على الهوية والعقيدة الإسلامية السليمة من الانحراف والتغيير، لأنها صمام للمجتمع خاصة في الحقبة الاستعمارية للدولة الجزائرية.

– كان بناء المدارس الوقفية يمثل عملية بناء درع ثقافي واع النطاق قام به العلماء والصلحاء والأمراء والرؤساء لمواجهة المخاطر المتمثلة في الغزو الفكري للمستدمرين.

– لم يقف أثر المدارس الوقفية في التعليم عند العلوم الشرعية فقط، وإنما شمل كل موضوعات المعرفة البشرية، وتستوي في ذلك العلوم الشرعية والعلوم التجريبية والتطبيقية والاجتماعية، لاسيما الطب والصيدلة والفلك، كما أنها تركت للطلبة والباحثين حرية التنقل من مركز تعليمي إلى آخر، ومن مدينة إلى أخرى، لكي يتقن علما جديدا لا يتوافر له في مجتمعه بعدما أتقدن العلوم التي تقدمها له مدرسته.

– كان نظام السكن الداخلي للطلبة في المدارس الوقفية من مفاخر التعليم الإسلامي، إذ ساهم هذا النظام في التفرغ للعمل وتوفير الجو المناسب للطلبة والمدرسين، كما أنها جعلت التعليم حقا للجميع، ولاسيما الفقراء والغرباء.

– لاشك أن كثرة الأوقاف على المدارس ولاسيما في العصور الازدهار المادي للحضارة الإسلامية أسهم في تحقيق مجانية التعليم، ولم يكن ممكنا تفرغ الأساتذة والمعلمين والعلماء للتعليم لو لم تؤمن معيشتهم على وجه يكفيهم.

– أعطت الأوقاف القوة للعلماء ولطلبة العلم باستقلالهم، فقد أغنتهم عن عطايا الحكام والسلاطين، وجنبتهم الاتهام في دينهم وعلمهم، فلم تأسرهم هبات أهل الحكم، فكانوا أعزة بدينهم وعلمهم، وولاؤهم للحق وأهله، لا تأخذهم في الله لومة لائم.

– لعبت المدارس الوقفية في ربوع سوف دورا كبيرا في الحفاظ على اللغة العربية، لأنها كانت تهتم بتدريس علوم اللغة العربية من نحو وصرف ومنطق وفلسفة وبديع وبيان علم العروض وغيرها، ووجد الدارسون في هذه المدارس أنها المكان الأمثل للفنون الشعرية التي كان يمتلك عدتها الكثير منهم، كما ساهمت في الحفاظ على التراث العربي الإسلامي، واستطاعت أن تلبي حاجات المجتمع الجزائري عامة والمجتمع السوفي خاصة، وأدت بذلك دورها في إعداد الفرد

للحياة طبقا للمثل الدينية والأخلاقية التي يدعوا إليها الإسلام.

– كانت المدارس الوقفية من المصادر الرئيسية في تزويد المجتمع بما يحتاجه من العلماء فقد تخرج منها خيرة العلماء وفي فروع علمية مختلفة، كما تخرج منها الأدباء والموظفون والتجار ومختلف المهن الأخرى.

– مثلت المدارس الوقفية نموذجا في توريث معاني العطاء والإنفاق والتكامل بين الناس.

–مثلت المكتبات الوقفية الساعد الأيمن للمدارس الوقفية في عملية البناء العلمي والحضاري، اذ سهلت طرق التعاطي مع العلوم المختلفة نظرا لما توفره من كتب وحاضرات ومناظرات كانت تعقد فيها، وكان العلماء يسدون النصائح لطلابهم ولرواد المكتبات على نحو عام، فانتشر التعليم في ربوع وادي سوف وبقية المناطق المجاورة لها.

خاتمة

وفي الختام هته المداخلة المتواضعة مني على إدراج جملة من التوصيات التي من شأنها الارتقاء بالوقف الإسلامي على نحو عام والله الموفق:

– لابد من العمل على استعادة الوقف لدوره الحقيقي في عالمنا المعاصر وذلك من خلال وقفة جادة من المسؤولين بمختلف مسؤولياتهم ورجال الإعلام والفكر تسهم في تهيئة الرأي العام للتفاعل الإيجابي مع الوقف الإسلامي.

–ضرورة إصدار تشريعات جديدة من شانها العمل على حماية الأوقاف، وتشجيع الواقفين، وتشخيص أهم المجالات التي يجب أن يوجه إليها الواقفون أوقافهم وذلك من منطلق الهم ثم المهم.

– لابد من توجيه الوقف نحو الاهتمام بشريحة الشباب، وبما أن الدولة لا تستطيع أن تلبي كل الاحتياجات فمن الواجب أن يأخذ الوقف على عاتقه مهمة المساهمة في تلبية مطالب الشباب التي في مقدمتها توفير فرص العمل والتعليم ورعاية الأيتام والفراء والأرامل.

– العمل على تطوير مجالات الوقف الإسلامي، وذلك من خلال الدخول في مجالات جديدة لها تأثير كبير على الرأي العام، مثل المجال الإعلامي، فماذا لو تم إيقاف قنوات إذاعية وفضائية تعمل على إشاعة ثقافة الوقف بين أفراد المجتمع، وتتفاعل مع المجتمع وتبين احتياجاته وتعرضها أمام الميسورين والمحسنين والمسؤولين، فكم مرة شاهدنا قنوات فضائية تعرض تقارير عن قضايا إنسانية (تقارير عن حاجة بعض المناطق لمدارس، وتقارير عن أطفال الشوارع الذين لا يجدون مأوى وغيرها...)، وعلى ضوء هذا العرض تتم الاستجابة من المسؤولين أو المحسنين.

– العمل على إشاعة ثقافة الوقف من خلال التعاون مع الجامعات ومنظمات المجتمع المدني التي تقوم بتقديم خدماتها المتنوعة إلى جانب المؤسسات الحكومية.

– البحث الجاد عن أسباب تراجع الوقف الإسلامي وعزوف البعض عن المساهمة في هذا المجال، والاعتراف بالأخطاء التي ساهمت بهذا التراجع وفي ضوء ذلك يمكن تحديد المعالجة والنهوض بواقع الوقف على نحو أفضل.

– المساهمة في تطور وعصرنة إدارة الأوقاف وضم لها خبراء إداريين وماليين وشرعيين وقانونيين لإدارة أحسن وأفضل للمؤسسة الوقفية، ويجب أن تعمل على ترشيد إنفاق الريع للوفاء بشروط الواقفين، وترشيد إنفاق هذه الأوقاف...

قائمة المصادر والمراجع:

1–إبراهيم محمد الساسي، العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، الدار التونسية لنشر، تونس ط:1977،1.

2– إبراهيم محمد الساسي، العوامر، البحر الطافح في بعض فضائل شيخ الطريق سيدي محمد الصالح، مطبعة بيكار، تونس، 1323هـ=1905م.

3– إبراهيم، مياسي، الدور التعليمي لزاوية سيدي سالم الرحمانية بوادي سوف، حولية المؤرخ، ع:1، تصدر عن اتحاد المؤرخين الجزائريين، الجزائر 2002.

4– أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ط:1998،ج:3(1830–1954م).

5–الجباري، العثماني، التراث المخطوط بخزانة زاوية سيدي سالم العزوزية في وادي سوف–جرد وإحصاء–،مداخلة ضمن الملتقى الوطني السادس حول: التراث الثقافي، خزانة المخطوطات في الجزائر بين نوازع الانكفاء وآليات الصمود والارتقاء، ماي 2013.

6– الصادق أبكر آدم،بشر، الوقف العلمي وأثره على التعليم، جامعة الإمام المهدي، السودان.

7– محمد محمد، الأمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر 648–923هـ/1250–1517م، دراسة تاريخية وثائقية، دار النهضة العربية، ط: 1980م، القاهرة، مصر،

8– قاسمي الحسني، عبد المنعم، الطريقة الخلوتية الرحمانية: الأصول والآثار منذ ظهورها إلى غاية الحرب العالمية الأولى، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في العلوم الإسلامية: تخصص عقيدة، إشراف: الدكتور عمار جيدل، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية، السنة الجامعية:2008–2009م.

9– عبد القادر بن محمد الدمشقي، النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسيني،مطبعة الترقي، ط:1367هـ/1948م، دمشق، سوريا،ج:1.

10– موسى، بن موسى، الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها 1900–1939م، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006.

11– عبد الباقي، مفتاح، أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، دار الوليد، الوادي، 2005م.

12– علي،غنابزية، مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 19م، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2000/2001م.

13– مصطفى، سالمي، الدر المصفى من تقاليد الشيخ سالمي مصطفى، تص، تع، علي غنابزية، مخطوط بخزانة زاوية سيدي سالم.

14– لقاء خاص مع القائم على المكتبة الوقفية سيدي محمد بن سيدي مصباح السالمي يوم: 2016/09/02م مساء..